حضرموت الثقافية

Hadhramaut AL-Thaqafiah Magazine - September - 2017 محرم ١٤٣٩هـ

مجلة فصلية - السنة الثانية العدد (5)

- الصراع القبلي في حضرموت في القرن الثالث الهجري
- ورقة نقدية حول تنقيب البعثة الفرنسية في شرمة
- زيارة الطواشي الصيني تشينغ خه إلى ظفار
- إله القمر في العملة الحضرمية
- لقاء العدد : مع الأستاذ التربوي عبداللاه هاشم
- ملاحظات على معجم شعراء العامية الحضارمة



علـوي بن طاهـر الحدَّاد مؤرخاً



صفحة من الذكريات مع الأستاذ المؤرخ محمد بامطرف



المحسن الشيخ أحمد بن محمد بغلف



جماليات الالتفات في (يا رب سالك) لحدّاد بن حسن الكاف


من أعلام حضرموت
الأديب والمؤرخ العلامة
صالح بن علي الحامد
بريشة : سالم باسليم

محتويات العدد

حديث البداية

أضواء

تراث وآثار

ترجمة

شخصيات

حوار العدد

دراسات

مدارات

كتابات

نقد

حكايات

إبداع

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة الثانية العدد (5)

يوليو - سبتمبر 2017م

تصدر عن مركز حضرموت

للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

مراسلات المجلة

hc.magazine16@gmail.com

Baaesa-1@hotmail.com

موقعنا على الشبكة الإلكترونية

www.hadramout.center

العنوان : المكلا - باجعمان عمارة بن سوّاد - ت: ٣٥٠١٣٥

صفحات مجهولة من التاريخ الحضرمي (٢)

الطواشي الصيني تشينغ خه في زيارة ظفار



سبق وأن تطرقت في العدد الأول من هذه المجلة الغراء (حضرموت الثقافية) لتلك الزيارات التي قام بها الصينيون بأساطيلهم الضخمة بقيادة الطواشي المسلم (تشينغ خه) لمدينة الأسعاء (الشحر) في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، في عهد حاكمها (أبي دجانة)، واستعرضت فيها بعض ما كتبه أولئك المبعوثون من وصف للمدينة وأنشطتها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية. وها نحن في هذا الجزء الثاني نستعرض زيارة أخرى لذلك الأسطول الصيني وخاصة لظفار العمانية، في الفترة الزمنية نفسها التي شهدت آخر ثلاث رحلات لهذا الأسطول. وكان حاكم ظفار في تلك الفترة هو السلطان (علي بن عمر بن جعفر بن بدر الكثيري) مؤسس الدولة الكثيرية في حضرموت.



أنور حسن السكوتي

من المعلوم أن الارتباط التاريخي مابين حضرموت من جهة وإقليم ظفار العماني من جهة أخرى ضارب جذوره في القدم، منذ العهود الأولى التي ظهرت فيها مملكة حضرموت (أرض اللبان، وأن هذا الارتباط التاريخي ظل متصلاً بعدها لقرون عدة خلت، ولم تتفسخ خلالها أواصر ذلك الارتباط والاتصال إلا في فترات متأخرة جداً لاعتبارات جيوسياسية.

وظفار التي نتحدث عنها تاريخياً هي التي ذكرها ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م في كتابه معجم البلدان بالقول: ((مدينة على ساحل بحر الهند بينها وبين مرباط خمسة فراسخ وهي من أعمال الشحر وقريبة من صحار بينها وبين مرباط. وحدث رجل من أهل مرباط أن مرباط فيها المرسى، وظفار لا مرسى بها، وقال لي إن اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظفار وهو غلة لسلطانها، وإنه شجر ينبت في تلك المواضع مسيرة ثلاثة أيام في مثلها وعندها بادية كبيرة نازلة ويجتنيه أهل تلك البادية، وذاك أنهم يجيئون إلى شجرته ويجرحونها بالسكين فيسيل اللبان منه على الأرض ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار فيأخذ السلطان قسطه ويعطيهم قسطهم، ولا يقدرون أن يحملوه إلى غير ظفار أبداً وإن بلغه عن أحد منهم أنه يحمله إلى غير بلده أهلكه))(١).

وقد اشار المؤرخ الحضرمي (محمد بن هاشم) إلى أن ظفار هذه (الحديثة) اختطها (أحمد بن محمد الحبوظي) سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م (٢)، وأمر أهل مرباط – وهي ظفار القديمة- بالانتقال إليها (٣). وكانت في وقت سابق عن حكم آل الحبوظي خاضعة لآل الأكحل، ومنهم (محمد بن أحمد الأكحل المنجوي). وبعد أن آلت إلى آل الحبوظي، انتزعها منهم لاحقاً الملك المظفر الرسولي (يوسف بن عمر)(ت:٦٩٤هـ/١٢٩٥م) سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م في عهد سلطانها الثري (سالم بن إدريس الحبوظي)(ت: ٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، وسالم هذا هو الذي استقدم قبيلة آل كثير كقوة محاربة لتكون حامية لأملاكه في حضرموت. قبيل أن تتمكن هذه القوة لاحقاً من السيطرة على حضرموت والمهرة وعلى ظفار نفسها سنة ٨١٦ هـ/١٤١٣م. عندما استطاع السلطان (علي بن عمر الكثيري) -موضع حديثنا هنا- السيطرة عليها وانتزاعها من يد حكامها السابقين(٤).

ففي عهد هذا السلطان كان وصول تلك الأساطيل الصينية الضخمة التي عرفت في بعض الأدبيات بـ(أساطيل الكنز)(٥)، وخاصة في رحلاتها الخامسة والسادسة لبلدان المحيط الهندي، وتحديداً في الفترة من ٨٢٠-٨٢٥هـ/ ١٤١٧-١٤٢٢م، وقد توفي السلطان (علي بن عمر الكثيري) سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م في بعض الأقوال (٦)، ليتولى السلطة بعده ابنه السلطان (عبدالله بن علي). ومن الأرجح أن هذا الابن شهد في عهده قدوم الحملة السابعة والأخيرة لهذا الأسطول لسواحل البحر العربي؛ إذ إن تاريخ هذه

الحملة في الفترة من ربيع ثاني ٨٣٤هـ - صفر ٨٣٧هـ، ١٩ يناير ١٤٣١م - ١٤ سبتمبر ١٤٣٣م (٧). بينما ذهب المؤرخ عبدالله محيرز إلى أن وفاة السلطان (علي بن عمر) سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م، وأشار إلى أنه في عهد السلطان علي كانت تلك الحملة السابعة. بل وأشار أيضاً إلى ذكر اسم هذا السلطان في بعض سجلات الرحلة (٨).

وعلى الرغم من عدم تطرق المصادر والمراجع المحلية لهذه الرحلات ولزيارتها لهذا القطر الكبير الواقع على ساحل بحر العرب، ولو كإشارة باستثناء بعض المصادر اليمنية (٩) فإن هذا لاينفي حدوثها أو وقوعها، كما أن الوثائق الصينية التي حفظت في سجلات خاصة بهذه الرحلات أكدت حدوث تلك الزيارة، بل قدمت لنا صوراً حية ووصفاً دقيقاً عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية سواء كانت لظفار أو للمدن الأخرى التي زارتها كهرمز والأسعاء وعدن ومكة ومقديشو وغيرها. وهي صور يمكن أن تفيد الباحث ببعض الحقائق التاريخية المجهولة في تلك الفترة.

الوثائق المحفوظة بالسجلات الصينية عن ظفار:

وفيما يلي قائمة بالوثائق المحفوظة بسجلات الرحلات الصينية إلى ظفار وتواريخها بالهجري والميلادي والصيني ورقم السجل ورقم صفحته (١٠):

ظفار	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى	التاريخ الصينى	السجل	الصفحه
الوثيقه الأولى	٢١صفر ٨٢٤هـ	٢٦ فبراير ١٤٢١	سنه١٩ شهر١ يوم٢٥	مجلد١٤ سجل١١٠٦	٢٢٥٥
الوثيقه الثانيه	١٨ ذوالقعدة٨٢٦هـ	٢٤أكتوبر١٤٢٣	سنه٢١ شهر٩ يوم٢٠	مجلد١٤ سجل١١٥٤	٢٤٠٣
الوثيقه الثالثه	٦ شوال ٨٣٣هـ	٢٩يونيو ١٤٣٠	سنه٥ شهر٦ يوم٩	مجلد١٩ سجل١٥٣٤	١٥٧٧-١٥٧٦
الوثيقه الرابعه	٢٧ محرم ٨٣٧هـ	١٤ سبتمبر ١٤٣٣	سنه٨ شهر٨ يوم١	مجلد٢١ سجل١٦٠١	٢٣٤١
الوثيقه الخامسه	١٦صفر ٨٣٧هـ	٣ أكتوبر١٤٣٣	سنه ٨شهر٨ يوم٢٠	مجلد٢١ سجل١٦٠٢	٢٣٥١-٢٣٥٠
الوثيقه السادسه	٢٧ محرم ٨٤٠هـ	١١أغسطس ١٤٣٦	سنه١ شهر٦ يوم٢٩	مجلد٢٣ سجل١٦٩٤	٢٨٥

إن أول وثيقة عن علاقة السلطان علي الكثيري بالصينيين تلك التي تعود إلى سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م (١١) وفيها أشار الصينيون إلى أن السلطان علي كان من أكثر السلاطين تعاوناً مع الإمبراطور الصيني وأساطيله، والأكثر تساهلاً مع تجارهم. وهذا التساهل والتعاون لم يجدوه كما أشرت إليه في الحلقة الأولى لدى سلطان الشحر (أبي دجانة) أثناء زيارتهم الأولى له، مما اضطرهم لاستعراض عضلاتهم وتفوقهم الحربي بإجراء بعض المناورات الحربية قبالة الساحل، علّه يرضخ لهذا التعاون والدخول في علاقات تجارية معهم والقبول بنظام الجزية الصيني، فكان لهم ما أرادوا. كما أشاروا كذلك إلى رغبة السلطان علي القوية في الدخول في علاقات تجارية متبادلة. ولعل هذه الرغبة جاءت من اعتماد اقتصاد ظفار على التجارة في المقام الأول.

كما أفادت سجلات الصينيين أن السلطان (علي) أرسل خلال تلك الرحلات مبعوثين لدولته وتجاراً حملتهم معها تلك الأساطيل الزائرة، ومنهم مبعوثه (سفير بلاده) الذي يدعى بـ(حاجي حسين) بالصينية (هاي-زاي-هوتشان) لتقديم هداياه ومراسيم السفارة التي تعرف عند الصينيين بنظام الجزية المشار إليها آنفاً. وقد وصل هذا المبعوث العاصمة الصينية (بكين) سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م. (١٢) أي بعد وفاة السلطان علي الكثيري.

نظام الجزية الصينية:

نظام الجزية عند الصينيين (١٣)، ليس بالشكل المتعارف عليه في أدبياتنا المختلفة، وإنما هو نوع من التعبير التقليدي الذي استحبه أباطرة الصين من أسرة المينج، يقتضي قيام الدول والممالك التي تدخل في علاقات دبلوماسية وتجارية معهم بإيفاد مبعوثين لها مصحوبين بالهدايا والأشياء النادرة لتقديمها للإمبراطور وفقاً لطقوس ومراسيم معينة، خلال هذه المراسيم يظهر هؤلاء المبعوثون الأجانب بعض التملق والخضوع الصوري لهؤلاء الأباطرة. إرضاء لغرورهم وتصوراتهم كأسياد للعالم ورعاة. وبالمقابل يحظى هؤلاء المبعوثون بكامل كرم الضيافة مع المزيد من الرعايا والاهتمام فترة إقامتهم المحددة في الصين. وقد تطلب هذا التقليد من الصينيين الالتزام باصطحاب أولئك المبعوثين الأجانب من بلدانهم وإعادتهم إليها بوساطة سفنهم الصينية (الجنك)، وبصحبتهم الكثير من الهدايا النفيسة لهم ولحكامهم.

مشاهدات الصينيين ظفاراً ووصفهم لها:

ومما كتبه الصينيون من مشاهدات ووصف لبلاد ظفار وعادات أهلها، يمكن أن نستدل عليها بالنص الآتي (١٤)، معرضين عن تفاصيله لضيق المجال هنا.

((بلاد ظفار(تسافرة): يمكن الوصول إلى هذا المكان من (قاليقوط) بعد عشرة أيام وليال من الإبحار تحت ريح اتجاه شمالي غربي. وتقع هذه المدينة على ساحل البحر تحت سفح سلسلة جبلية، ولا يحيط بها سور ولا ضاحية لها، ويحدها البحر العظيم من جنوبها الشرقي، ومن شمالها الغربي سلاسل جبلية متتالية. ويعتنق ملك هذه البلاد وكافة أهلها الدين الإسلامي، ولرجالها سواعد طويلة وغليظة، وقامات طويلة يبدو عليها القوة. ولهم لسان صدق. ويلبس (الملك) على رأسه عصابة من نسيج أبيض دقيق أجنبي (الصنع)، أو يغطي جسمه ورأسه بعباءة مصنوعة من الحرير الناعم المطرز بأشكال نباتية، وأزهار زرقاء بحجم الإبهام، ويلبس أحياناً عباءة مطرزة بالذهب، وينتعل حذاءً عالي الساق، أو خفاً جلدياً مسطحاً. ويحمل عندما يخرج على محفله، أو يمتطي حصاناً، وتواكبه صفوف منتظمة من الفيلة والجمال والفرسان والعسكر كل منهم بسيفه وترسه، يعزفون بالمزامير والقرب، ويتقدم الجميع في حشد صاخب كثيف. ويلبس عامة الناس عمامة على رؤوسهم، وعباءة على أجسامهم وخفاً أو حذاء عالي الساق. فإذا كان يوم العبادة (١٥) توقف البيع والشراء في الأسواق قبل منتصف النهار، ويغتسل كافة الناس رجالهم ونسائهم، كبيرهم وصغيرهم. وعندما ينتهون من الغسل يتعطرون بماء الورد والعطر العود ويمسحون به وجوههم وسواعدهم، ويلبس الجميع ثياباً نظيفة ويحمل كل واحد منهم مبخرة يضع البخور أو العود أو العنبر أو ماشاكل ذلك. وبعد أن يبخروا ثيابهم، ويعطروا أيديهم وسواعدهم يتوجهون إلى (المسجد)

للعبادة. وبعد الصلاة يعودون إلى بيوتهم، وتبقى رائحة البخور تتضوع بعد مرورهم في الأسواق والشوارع. ويتقيدون بحرص شديد بالتعاليم الدينية في مراسيم الزواج والمآتم. وتنتج هذه البلاد البخور: عبارة عن صمغ من شجرة تشبه شجرة (الدردار) إلا أن لها أوراقاً مدببة طويلة. ويقطع الشجر باستمرار لاستخراجه وبيعه. وعندما وصلت-إلى هذه البلاد- مراكب الهدايا من البلاد المركزية قرئ المرسوم الامبراطوري، وأنعم على الجميع بالهدايا، وأرسل ملك تلك البلاد من ينادي فيها: إن كل من بحوزته شيء من البخور، ودم الاخوين، والصبر، والمر، واللبان الجاوي، أن يقايض –الصينيين-بحرير القنب، والصيني وغيرهما (من منتجات الصين). ومناخ هذه البلاد حار باستمرار أشبه بالطقس في الشهر الثامن أو التاسع. ويتوافر فيها الرز المقشور والذرة والقمح والذخن وبذور القنب وغير ذلك من الخضروات والقرع. كما توجد فيها البقر والغنم والخيل والحمير والقطط والكلاب والدواجن والبط. وتوجد النعام في الجبال يصطادها بعض أهل البلاد لبيعها. ولهذا الطائر جسم منبسط وعنق طويل يشبه عنق الكركي. وطول ساقها ثلاثة أو أربعة (شية) ولها أصبعان في كل رجل، وشعرها كشعر الجمال، وتأكل الحمص الأخضر، وغير ذلك من الأشياء، وتمشي كالجمل. ولذا سميت بـ(الطائر الجمل). وأما جملهم فلها سنام واحد فقط، كما يوجد لديهم أيضاً جمال ذات سنامين يستعملها كافة الناس للذهاب إلى الأسواق, وعندما تشيب ويدنو أجلها تذبح ويباع لحمها. ويصدر هذا الملك عملة ذهبية اسمها (تانجا شيه)، وتزن ٢ (شيين) بمقاييسنا. وقطر هذه العملة (تسن) واحد وخمسة (فن) على أحد وجهيها، وعلى الآخر رسم لوجه. ويصدر عملة نحاسية وزنها ٣ (لي) وقطرها يساوي ٤ (فن) للمعاملات التجارية الصغيرة. وفي اليوم التالي الذي تقرر فيه عودة المبعوث الإمبراطوري، أرسل ملك هذه البلاد مبعوثاً –برفقة المراكب العائدة-يحمل هدايا من البخور والنعام وغيرها لتسليمها شخصياً للبلاط)).

الهوامش:

(١) الحموي, ياقوت, معجم البلدان, دار صادر, بيروت, ١٩٧٧م, (٤/٦٠).

(٢) عند المؤرخ شيخ الربوة: اختطها أحمد بن محمد سنة ٦٢٠هـ وأسماها بالأحمدية. انظر أبا عبدالله محمد الأنصاري, نخبة الدهر في عجائب البر والبحر, ص٢١٨.

(٣) العلوي, محمد بن هاشم, تاريخ الدولة الكثيرية (١/١٧), ومن الواضح أن ظفار هذه أقدم بكثير من هذا التاريخ الذي ذكره ابن هاشم.

(٤) كانت ظفار قبيل انتزاع السلطان (علي بن عمر) خاضعة لنواب بني رسول, وكان الحرانيون (شهاب الدين أحمد بن عامر الحراني) يحكمونها نيابة عنهم, أو أنهم استقلوا بها, واستمروا فيها إلى أن هاجمهم السلطان (علي بن عمر الكثيري) سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٤م وبعد عدة مناوشات اتفق الطرفان (الكثيري-الحراني) على أن تكون البلاد مناصفة بينهم, فعين علي بن عمر ابن قسمان حاكماً على ظفار, بينما أصبح ابن جسار حاكما على النصف الآخر, إلا أن ابن جسار كما يقال غدر بابن قسمان, مما اضطر السلطان علي بن عمر إلى التوجه إلى ظفار على رأس قوة كبيرة, والسيطرة عليها سيطرة كاملة سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م. انظر العلوي, أحمد شنبل, تاريخ حضرموت ص١٥٧, ص١٦١. بينما أشار المؤرخ ابن حجر العسقلاني وهو معاصر لهذه الفترة أن علي بن عمر الكثيري انتزع ظفاراً من حاكمها الأخير (عبدالله بن محمد بن علي بن نزار الظفاري) الذي فرَ هذا هارباً بعد خسارته أمام الكثيري إلى مكة ثم اتجه إلى القاهرة وفيها مات فقيراً. انظر العسقلاني, ابن حجر, أنباء الغمر بأبناء العمر, تحقيق د. محمد عبدالمعيد خان, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط٢, ١٩٨٦م, عدد الأجزاء ٩, (٧/٤٤٠), (٨/٢٩١), وانظر د. خليل, محمد محمود, الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحوليات الصينية فترة العصور الوسطى, أسرة مينج نموذج, المؤتمر الدولي الرابع حول العلاقات العربية الصينية, التاريخ والحضارة, كلية الآداب, جامعة قناة السويس, مصر, ٢٠١٢م, ص٢٣٨.

(٥) جاءت هذه التسمية نسبة للهدايا الثمينة التي حملتها تلك السفن, لتقدم إلى أمراء وسلاطين الدول المزارة, وأيضاً لبضائعها الفاخرة التي كان الصينيون يتاجرون بها.

(٦) ثمة لبس في وفاة السلطان (علي بن عمر الكثيري), فعند المؤرخ أحمد شنبل وكما أوردناه سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م شنبل ص١٧٠. بينما نجد المؤرخ (محمد بن هاشم) وفي ترجمته للسلطان علي أشار ظنياً, إلى أن وفاته سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م, وهذا وهم, انظر تاريخ الدولة الكثيرية (١/١٦), كما أن المؤرخ (عبدالله محيرز), جعل وفاته سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م. وأشار إلى أن مرجعه في هذا ابن حجر العسقلاني وكتابه أنباء الغمر, في حين لم نجد إشارة لهذا التاريخ ضمن الفقرة المشار إليها بالكتاب المذكور. انظر محيرز, رحلات الصينيين الكبرى, ص١٢٩. وفي فقرة أخرى أشار محيرز إلى أن بعض سجلات الصينيين عن الرحلة أشارت إلى أن اسم ملك ظفار في الرحلة السابعة من ٨٣٤-٨٣٧هـ/١٤٣١-١٤٣٣م كان يدعى (علياً) وهو الذي أرسل مبعوثه إلى الصين ضمن مبعوثين لعدة دول زاروها منها عدن والأسعاء(الشحر). انظر رحلات الصينيين الكبرى ص١٢٩-١٣٠.

(٧) محيرز, عبدالله, رحلات الصينيين الكبرى, مرجع سابق, ص٦٤.

(٨) محيرز, مرجع سابق, ص١٢٩-١٣٠.

(٩) من المصادر التي أشارت إلى قدوم هذه البعثة الصينية لليمن, ابن الديبع, عبدالرحمن, الفضل المزيد على بغية المستفيد, تحقيق يوسف شلحد, مركز الدراسات والبحوث اليمنية صنعاء, ١٩٨٣م, ضمن حوادث سنة ٨٢٣هـ ص١٠٧. بامخرمة, أبو محمد الطيب بن عبدالله, قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر,عني به, بوجمعه مكري, خالد زواري, دار المنهاج, السعودية, ٦ أجزاء. ضمن حوادث سنة ٨٣٥هـ انظر (٦/٤٠٥) وعنها أيضاًمحيرز, عبدالله, رحلات الصينيين ص٦٥.

(١٠) خليل, د. محمد محمود, الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحوليات الصينية, مرجع سابق, ص٢٤٠.

(١١) المرجع السابق, ص٢٣٩.

(١٢) رحلات الصينيين الكبرى, ص١٣٠.

(١٣)للمزيد من التفاصيل عن هذا النظام ومراسيمه انظر خليل, الخليج والجزيرة في الوثائق والحوليات الصينية ص٢٢٤.

(١٤) رحلات الصينيين الكبرى, ص٨٧-٨٨. ولهذا النص الذي كتبه مترجم الرحلة (ماهوان), في كتابه (مشاهداتي في شواطئ المحيط الظافر) صيغ أخرى اختلفت مفرداتها بسبب إشكالية الترجمة وتنقل النص الواحد بين اللغات المختلفة, منها النص الذي اورده د. خليل في بحثه الخليج والجزيرة العربية, مرجع سابق ص٢٦٥. وثمة نص آخر نسب لمؤلفه الصيني (فايسين) الملقب بـ(قونغ شياو) وهو لا يختلف في مضمونه عن هذا النص الوارد تجعلنا نعتقد أن كاتب النصين واحد. وللعلم أن فايسين هذا كان مرافقاً لماهوان في تلك الرحلات تحت إمرة القائد الطواشي (تشينغ خه), وفايسين أيضاً رجل مسلم, من منطقة كونشان ومن قومية الهوي. عنه انظر المرجع السابق, د. خليل. الخليج والجزيرة العربية, ص٢٥٨.

(١٥) يقصد به يوم الجمعة.